تأصيل المنهج التجريبي
في القرآن الكريم

دكتور/ شعبان رمضان محمود مقلد
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
جامعة الجوف

المقدمة

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ". (الأنعام ١)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين... وبعد

فقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم هدى ونورًا للناس أجمعين، وجاء معجزة متجددة في عطائه، وافيًا بحاجات البشر في مختلف العصور، ونظرًا لتجدد الأحداث وتنوع حاجات البشر في كل عصر تنوعت أساليب البحث عند المفسرين حسب معطيات كل عصر؛ لتواكب هذه الأحداث وتفي بتلك الحاجات للبشرية.

والقرآن الكريم فيه الكثير من النصوص التي تدعو إلى التدبر والتأمل، وتحث العقل على الملاحظة والتجربة، ومن هنا اتجه المسلمون في القرون الأولى من ظهور الإسلام إلى المنهج التجريبي الذي يقوم على الملاحظة الحسية في دراسة الظواهر الجزئية وذلك للكشف عن قوانينها.

وهذه العقلية العلمية التي اتصف بها العلماء الأوائل من المسلمين هي العقلية المنهجية المنظمة التي تقوم على الدليل والبرهان، ولا تثبت إلا ما قامت عليه الحجة.

ولذلك فالصوت المنصف هو الذي ينسب إلى علماء المسلمين فضل السبق في اكتشاف المنهج الاستقرائي أو التجريبي القائم على الملاحظة

والتجـــربة قبل أن يعرفه الغرب، وخير مثال لذلك: أبو بكر الرازي وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم، وغيرهم من علماء المسلمين، فلقد سبقوا أهل الغرب في هذا المجال.

أولاً: أهمية الموضوع وأسباب اختياره

كثيـــرًا مـــا كانت تراودني فكرة الحديث عن تأصيل هذا الجانب، وبعد قـــراءات متأنية شرعت بعون الله في ترجمة الفكرة إلى واقع عملي، تبلورت فـــي مـــشاركة متواضـــعة في مجلتكم الغراء ببحث بعنوان: " تأصيل المنهج التجريبـــي فـــي القرآن الكريم "، ومما دعاني ــ أيضًا ــ إلى الكتابة في هذا الموضوع غير واحد من الأسباب ومنها:

* القيمة العلمية لبيان المنهج التجريبي.
* أننـــي لـــم أعثر فيما قرأت على أحد تناول هذا الجانب وهو إبراز تأصيل المنهج التجريبي من القرآن الكريم.
* انجـــراف الكثيرين وراء الحضارات الغربية البراقة ونسبة كل شيء إليها.
* محاولة إبراز حقيقة أن المنهج التجريبي أصله في دستورنا الحكيم.

ثانيًا: أسئلة الدراسة

تنحصر أسئلة هذه الدراسة فيما يلي: ما المقصود بالمنهج التجريبي في القرآن الكريم؟ ثم: كيف نشأ المنهج التجريبي؟ وما أهمية المنهج ــ بوجه عام ــ في الفكر الإسلامي؟ وهل كان لدى العلماء المسلمين الأوائل منهجًا تجريبيًا؟ وما خطوات هذا المنهج؟ ثم هل لهذا المنهج التجريبي أصل في القرآن الكريم؟

ثالثًا: أهداف الدراسة

ويمكـــن حـــصر أهداف الدراسة من خلال الإجابة على الأسئلة السابقة فيما يلي:

= التعريف بالمنهج التجريبي في القرآن الكريم.

= إبراز نشأة المنهج التجريبي.

= بيان أهمية المنهج في الفكر الإسلامي.

= إلقاء الضوء على المنهج التجريبي عند العلماء المسلمين.

= إلقاء نظرة سريعة على خطوات المنهج التجريبي.

= لفت القارئ الكريم إلى بعض الآيات القرآنية التي تحث العقل المسلم على الملاحظة والتجريب في شؤونه الحياتية.

رابعًا: منهج البحث وأداته

استخدم الباحث المنهج الاستقرائي الوصفي ثم الاستنباطي، فقد قام بالنظر في بعض المراجع والمصنفات التي تتحدث عن المناهج في الفكر الإسلامي ـ بوجه عام ـ والمنهج التجريبي ـ بوجه خاص ـ كما قام باستقراء قدر كبير من آيات القرآن الكريم، والوقوف على بعض الآيات التي تبرز فيها التجربة، والنظر فيها نظرة تأملية، وبالتالي لفت نظر القارئ الكريم إليها.

خامسًا: مكونات البحث

رؤي أن تتناول هذه الدراسة بعد هذه المقدمة عدة نقاط مترابطة على النحو التالي:

* **التعريف بالمنهج التجريبي في القرآن الكريم.**
* **نشأة المنهج التجريبي**
* **أهمية المنهج في الفكر الإسلامي**
* **دعوة القرآن الكريم إلي العلم والتعلم**
* **المنهج التجريبي عند العلماء المسلمين**
* **خطوات المنهج التجريبي**
* **نماذج من المنهج التجريبي في القرآن الكريم.**
* **خاتمة البحث وتوصياته.**

وأخيرًا قائمة بأهم المصادر والمراجع التي رجع إليها الباحث.

وتمـــثل هذه الدراسة رصدًا مهمًا لتأصيل هذا الجانب من القرآن الكريم من خلال كتب التفسير وإبراز النواة الحقيقية لهذا الجانب.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الباحث

التعريف بالمنهج التجريبي في القرآن الكريم

أولاً: مفهوم المنهج:

المنهج في اللغة:

(نهج) طَرِيقٌ نَهْج: بَيِّنٌ واضِحٌ، وهو النَّهْج، والجمع نَهجات ونُهُج ونُهوج.

ومَنْهَج الطريق: وضَحُه. والمِنهاج: كالمَنْهَج. وفي التنزيل: "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً"(المائدة: من الآية٤٨) وأَنهَج الطريقُ: وضَحَ واسْتَبانَ وصار نَهْجا واضِحاً بَيِّناً، والمِنهاج: الطريقُ الواضِحُ. واسْتَنْهَج الطريقُ: صار نَهْجا.(١)

المنهج في الاصطلاح:

"الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة ".(٢)

وقد استقر معنى كلمة منهج منذ عصر النهضة الأوربية بمعنى طائفة من القواعد العامة المصاغة من أجل الوصول إلى الحقيقة من العلم، ومعنى المنهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.(٣)

---

(١) لسان العرب. جمال الدين محمد ابن منظور (١٤١٠هـ)، ج٢، ص ٣٨٣، ط: دار صادر، بيروت.

(٢) المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، ص ١٦٩، صالح بن حمد العساف (١٤٢٤ هـ) ط٣، مكتبة العبيكان.

(٣) مناهج البحث العلمي عبد الرحمن بدوي، ص١٨-١٩. وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٧م.

"فــن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، من أجل الكشف عن الحقيقة ".[١]

"طــريق كسب المعرفة، أوهو الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسة المــشكلة لاكتــشاف الحقيقة، أو هو الخطوات المنظمة التي يتبعها الباحث في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراستها ".[٢]

تعريف المنهج التجريبي:البحث التجريبي هو " استخدام التجربة في إثبات الفروض، أو إثبات الفروض عن طريق التجريب ".[٣]

أمــا المختــصين في جانب الإعجاز العلمي فيعرفون المنهج التجريبي بأنــه: العلم الذي نحتاج إليه لدراسة وتقييم الأبحاث الطبية المتضمنة لأحاديث من الهدي النبوي.

لــذا يهمنا أن نتعرف بصورة أدق على المنهج التجريبي الذي يستخدم أســاليب الملاحظة العلمية وفرض الفروض وإجراء التجارب لحل مشكلة ما والوصول إلى نتيجة معينة.

والمــنهج العلمــي هو منهج الاستقراء، لمعرفة كيفيات المادة، أي تتبع جــزئيات حسية، وتتبعها بالملاحظة، أو بإجراء التجارب عليها، وهو المنهج الذي قامت عليه الحضارة الحديثة، وعلى أساسه أيضا ستتطور هذه الحضارة، وترقى وتتسع -كما وكيفا- إلى ما شاء الله.[٤]

---

(١) كتابة البحث العلمي صياغة جديدة. ص٦٠، عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، (١٤١٦هـ)، دار الشروق. جدة. ط سادسة.

(٢) أساليب البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية. ص ٣٣ محمد راكان الدغيمي، (١٤١٧هـ)، ط٢، مكتبة الرسالة، الأردن.

(٣) البحث العلمي مفهومه، أدواته، قياسه. ص ٣١٠ د/ ذوقان عبيدات – د/ عبد الرحمن عدس – د/ كايد عبد الحق ١٤٢٤هـ– دار محدولاي للنشر والتوزيع – عمان.

(٤) الطــب النبوي.. رؤى نقدية الأخطاء المنهجية في أبحاث "الطب النبوي. صهباء بندق. مقال على الشبكة العنكبوتية. موقع إسلام أون لاين نت.

التعريف بالقرآن الكريم.

القرآن في اللغة:

اختلفت أهل اللغة في أصل كلمة (قرآن)، ويمكن اختصار وحصر أقوالهم في اتجاهين يوردهما السيوطي في قوله:

وأما القرآن فاختلف فيه فقال جماعة هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله فهو غير مهموز وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي أخرج البيهقي والخطيب وغيرهما عنه أنه كان يهمز قرأت ولا يهمز القرآن ويقول القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل، وهذا هو الاتجاه الأول.

- الاتجاه الثاني: يذهب إلى أن لفظ (القرآن) مشتق، وجاء في هذا الاتجاه أربعة أقوال:

١- أن القرآن مصدر لقرأت كالرجحان والغفران، سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر. وبه قال اللحياني وآخرون.

٢- وقال قوم منهم الأشعري: هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء: إذا ضممت أحدهما إلى الآخر.

٣- وقال الفراء: هو مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضاً وهي قرائن. وعلى القولين بلا همز أيضاً ونونه أصلية.

٤- وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته...

وبعد أن ذكر السيوطي تلك الأقوال: والمختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي ــ وهو الاتجاه الأول ــ [1].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للحافظ أبي بكر السيوطي ١/١٤٤، تحقيق: خليل محمد العربي، ط/ مطبعة ومكتبة الفاروق الحديثة بالقاهرة،ط/ أولى١٤١٥هـ

أمـــا الـــشيخ الزرقانـــي فيرى أن القرآن مشتق ويقول: القرآن مصدر مرادف للقراءة، ومنه قول الله تعالى: "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ" [القيامة ١٧،١٨] ثم نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسمًا للكلام المعجز المنزل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من باب إطلاق المصدر علـــى مفعـــوله،... وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز، وإذا حذف همزه فإنمـــا ذلـــك للتخفـــيف، وإذا دخلته أل بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف.(١)

القرآن في اصطلاح العلماء:

معلـــوم أن القرآن كلام الله، وأن كلام الله غير كلام البشر ما في ذلك ريـــب، والقـــرآن يـــتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخـــواص، بحـــيث يكون تعريفه حدًا حقيقيًا، ويذكر العلماء له تعريفًا يقرب معناه ويميزه عن غيره.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز ــ رحمه الله ــ: أما ما ذكره العلماء مـــن تعـــريفه بالأجـــناس والفصول كما تُعرف الحقائق الكلية فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً، ذلـــك أن ســـائر كـــتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً فربما ظن ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيـــضاً، فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع.(٢)

ومن التعاريف التي ذكرها العلماء للقرآن الكريم ما يلي:

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١/١٦. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ط/ أولى ١٤٠٩هـ .

(٢) النبأ العظيم: للدكتور محمد عبد الله دراز، ص ١٤، ط/ دار القلم، الكويت، ط/ ١٣٩٠هـ.

أ – جاء في تعريفه أنه: اسم للمتلوّ المحفوظ المرسوم في المصاحف.(١)

ب – وقيل أيضًا: اللفظ المنزّل على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس. (٢)

ج – ويعرفونه أيضًا بأنه:

كلام الله المعجز المنزل على النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته.(٣)

د – وقيل أيضاً في تعريفه هو: القرآن هو كلام الله المعجز، ووحيه المنزّل على نبيه محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته.(٤)

هـ – وقيل في تعريفه هو: كلام الله المنزّل على خاتم الأنبياء والمرسلين، بوساطة الأمين جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس).(٥)

---

(١) إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، على حاشية الإتقان للسيوطي،٢٠/١ ط / مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، ط/ رابعة ١٣٩٧ هـ.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ١٩/١. ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ط/ أولى١٤٠٩هـ.

(٣) مناهل العرفان ١٦/١، ١٩، مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان١٥،١٦، ط: مطبعة المدني المؤسسة السعودية بالقاهرة، ط/١٢،١٤٢٣هـ الناشر: مكتبة وهبة بالقاهرة، ومباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح ص٢١، ط/ دار العلم للملايين، بيروت. لبنان، ط/١٧، ١٩٨٨م.

(٤) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، لمحمد الصباغ، ص ٦، ط/ المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ.

(٥) التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين ص١١. ط / دار الشروق، بيروت،ط/ثالثة ١٣٩٩هـ.

و- وقـيل في تعريف القرآن هو: المنزّل على الرسول، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة.(١)

ومن هذه التعريفات نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم:

كلام الله تعالى الذي أنزله على النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ المعجز، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس- المحفوظ في الصدور.

تعريف بالمنهج التجريبي في القرآن الكريم:

القـرآن الكريم بلغ الغاية في عظمة أسلوبه ودقة نظمه ورقي عباراته الكـريمة، ولا يلـيق بمثلنا أن نعرف بمنهج فيه لأننا لا نستطيع أن نقدر أي جانب في القرآن قدره، أو نحيط بكنهه، لكنا نعطي لمحة لمعنى قريب من هذا المـنهج، مـع اعتـرافنا بعجزنا وعجز غيرنا من الكثير من بني البشر عن الوصـول إلى تعريف دقيق أو حتى قريب من الدقة لهذا المنهج، فنقرب هذا المنهج من الأذهان ونقول:

الطريقة البالغة الغاية في الدقة والتنظيم التي يحث القرآن الكريم المسلم على تتبعها في دراسة أمر ما، أو في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراستها، بهدف شحذ همته إلى ما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه.

أو: حث القرآن الكريم على استخدام التجربة في إثبات الفروض، بهدف لفـت نظر المسلم إلى أمر ما، أو ترسيخ جانب ما في فكره، حتى ينتفع بذلك في دينه ودنياه.

نشأة المنهج التجريبي:

إن علمـاء الإسلام الأوائل قدموا خدمات جليلة للمعرفة الإنسانية، فقد دفعـت توجـيهات القـرآن الكريم والسنة المطهرة المسلمين دفعا إلى مختلف

---

(١) التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، ص ١٧٤، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ط/أولى ١٤٠٣هـ.

مجـــالات المعرفة، فانطلقت النهضة العلمية التي دوت في أنحاء العالم، والتي قامـــت على منهج التجريب والاستقراء، كثمرة طيبة لتوجيهات القرآن الكريم والـــسنة النبوية، بينما يتراجع مؤشر الوعي والالتزام بالمنهج العلمي في زمن الأحفـــاد بسبب التعاطي المغلوط والمنقوص مع إشارات الهدي النبوي، فالعقل والمـــنطق فـــي فهـــم الـــسنة النبوية يؤدي إلى نفع البشرية واستحقاق الريادة والمجـــد، بينما يؤدي التعاطي العاطفي والمتسرع إلى تضليل وتشويه مفاهيم العامة وازدراء العقلاء والمختصين.(١)

ومـــن المفكرين والمثقفين من يرى ارتباط ظهور الإنسان منذ أن خلقه الله علـــى وجـــه الأرض بمحاولـــته لمعرفة الطبيعة التي أوجدها الله له، وبدأ الإنـــسان منذ ذلك الحين بتجريب واختبار المواد لمعرفة الصالح والمناسب له ولـــو أخذنا مثالاً على ذلك أن الإنسان الأول كان يستخدم حجر الصون لقدح الـــشرر وتولـــيد الـــنار منه فلابد أن الوصول لهذه النتيجة سبقتها العديد من الاختـــبارات على عدد من العناصر لمعرفة هذه الخاصية الموجودة في حجر الـــصوان دون باقـــي العناصر. فالشاهد في ذلك انه استخدم الملاحظة ثم قام بعملية التجريب بدا في مرحلة مبكرة من تاريخ الإنسانية.

وربمـــا كانت لهذه الرؤية وجاهتها لكنا نتحدث في تأصيل هذا المنهج، فتدلنا قراءة التراث الإسلامي على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي فنرى على سبيل المثال - أن (الحسن بن الهيثم) يستعمل لفظ(الاعتبار) وهو لفظ قرآني ليدل على الاستقراء التجريبي أو الاســـتنباط العقلـــي ويـــستخدم قياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات كذلك نجد (أبا بكر الرازي) يستخدم الأصول الثلاثة: الإجماع،

---

(١) مناهج البحث العلمي عبد الرحمن بدوي. الكويت: وكالة المطبوعات ١٩٧٧ ص١٨-١٩.

والاستقراء، والقياس في تعامله مع المجهول، فهو يقول: (إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ولا نحل شيئا من ذلك محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له. .ما اجتمع عليه الأطباء و شهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك) ولقد استند علماء الحضارة الإسلامية على اختلاف تخصصاتهم - في ممارستهم للمنهج العلمي - إلى مباديء أساسية استمدوها من تعاليم دينهم الحنيف.(١)

فالمنهج التجريبي بالمعنى الذي ذكرناه آنفًا لم يكن حديث النشأة بل يعود في جذوره إلى مفكري الإسلام ويمكن أن نذكر بعضا منهم العالم والطبيب الفيلسوف ابن سينا من خلال كتابه "القانون في الطب وأبا بكر الرازي من خلال كتاب "الحاوي" ومن كبار علماء الكيمياء "جابر بن حيان" ومن علماء الطبيعة الأجلاء الحسن بن الهيثم الذي يعد أول من طبق الرياضيات في دراسة الظواهر الطبيعية. فقد تحدث جابر بن حيان عما أسماه بالدّربة والمقصود بها اليوم التجربة واعتبارها شرطا ضروريا لقيام العلم كما تحدث عن ضرورة تحديد المعاني أو ما نسميه اليوم بتحديد المفاهيم والمصطلحات ووضع بخصوص ذلك رسالة عنوانها" الحدود".ويرفض قبول أية حقيقة تنقل عن الغير ما لم يتثبت من صحتها تجريبيا أما لحسن ابن الهيثم الذي هو من كبار علماء الطبيعة كما قلنا سابقا فقد طبق المنهج الاستقرائي في دراسة ظاهرة الانعكاس وظاهرة الانعطاف في الضوء وانتهى إلى إبطال الرأي اليوناني القائل أن الرّؤية تتم عن طريق شعاع يصدر عن العين

---

(١) من المآثر العلمية للمسلمين: تأسيس منهجية البحث العلمي. ص٢.ورقة بحثية بقلم أ.د .أحمد فؤاد باشا.على الشبكة العالمية للإنترنت. موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - مكة المكرمة.

المبصرة. وأثبت أن الأمر يتعلق بالضوء الذي له وجود في ذاته. ومن الأسس الهامـــة التـــي أقـــام عليها منهجه التأكيد على ضمان الأمانة العلمية والتحلي بالموضوعية ويقول "ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه وننتصفحه استعمال العدل لا إتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء." ويعترف مفكرو الغرب أنفسهم بجهود العلماء المسلمين في البحث ومـــن هـــؤلاء جـــون هارمان رائل إذ يقول "كان العرب في القرون الوسطى يمـــثلون التفكير العلمي والحيأة الصناعية العلمية الذين تمثلها في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة، وخلافا للإغريق لم يحتقر العرب المختبرات العلمية والتجارب الصبورة.

ويقـــول بريفو" brifflault إن ما ندعوه علما قد ظهر في أوربا نتيجة لـــروح جديـــد فـــي البحث وطرق جديدة في الاستقصاء...والطرق التجريبية والملاحظة والقياس، والتطورفي الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان، هذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوروبي".... (١)

أهمية المنهج في الفكر الإسلامي:

"تـــرجع أهمية المنهج إلى كونه الطريق المأمون في الوصول إلى العلم الـــصحيح، والإســـلام له عنايته الخاصة بطلب العلم، فقد أمر الإسلام بالعلم، وأثنى على العلماء، وذم الجهل والجاهلين، كما طالب بالتثبت والتحقق في طلب العلـــم، وطالـــب بإقامة الدليل والبرهان على أية دعوى يدعيها الإنسان، وكما يقول علماء البحث والمناظرة:(إذا كنت ناقلاً فالصحة وإذا كنت مدعياً فالدليل). ولمـــا ادّعى المشركون أن الملائكة بنات الله، وحكموا عليهم بالأنوثة، طالبهم الله عـــز وجـــل بالدلـــيل علـــى ما يدعون، وبين أن هذا الأمر دليله المشاهدة والمعاينة، وهم لم يشاهدوا خلق الملائكة، فكيف يحكمون عليهم بالأنوثة ؟ إنه

---

(١) المنهج التجريبي في علوم المادة. قسم الدروس المستوى الثانوي (النهائي) على صفحة منتديات التربية والتعليم والثقافة. منتديات الساحة العربية.

حكـــم خاطئ لأنهم سلكوا فيه مسالك خاطئة وبنوا قولهم على التخمين والظن، وهـــذا أمر: طريق إثباته يعتمد على المشاهدة والمعاينة، يقول تعالى: "وَجَعَلُوا الْمَلائِكَـــةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ" (الزخرف:١٩)

ولـــذلك كانت عناية الإسلام بالمناهج كبيرة لأنها وسيلة التثبت والتحقق في طلب العلم، وبدون المنهج السليم من البحث يشرد الذهن وتتحكم فيه الأهواء ويـــضل الطـــريق، ولا يعـــد الإنسان عالماً مالم يسلك منهجاً علمياً يحقق به معلـــوماته وموضـــوعاته، ولا يكفي – كما يقول ديكارت – (أن يكون لدى الإنسان عقل سليم، بل لابد أن يعرف كيف يستخدمه استخداماً سليماً) وقد أمر الإســـلام أولـــي العقـــول بالاعتبار، فقال تعالى (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) (الحـــشر: من الآية٢). والاعتبار هنا كما يقول أهل العلم –مقصود به القياس، وهو أحد المناهج المستخدمة في توليد الأحكام.

كمـــا جعـــل الإسلام توثيق الأخبار مطلباً شرعياً ودليلاً من أدلة العلم الـــصادق فقال صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية... ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[١].

وقـــد طالب القرآن اليهود بتوثيق دعواهم حينما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تدعي أنك على ملة إبراهيم ولكنك تخالف شريعته، فأنت تأكل مـــن لحـــوم الإبل وتشرب من ألبانها، وإبراهيم قد حرمها على نفسه، فنزل القرآن يكذب اليهود ويبين أن دعواهم ينقصها التوثيق، فهي دعوى كاذبة لأنها قامـــت علـــى منهج خاطئ لأنهم لم يشاهدوا إبراهيم ولم يعاصروه، ولم يأتهم نص في التوراة يدل على ذلك، فمن أين إذن استقوا دعواهم ؟ إن دعواهم تفتقد

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ج١ ص٢٧، وفي صحيح مسلم ج١ ص٥٧(شرح النووي ط: الشعب) بلفظ: (إن كذبًا علي ليس ككذب على أحدكم، فمن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)

المنهجـية الصحيحة، قال تعالى "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْـرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (آل عمران٩٣) ومن هنا كانت عناية الإسلام بمنهج التوثيق للأخبار، وعنايته بمنهج القياس والاعتبار في تفريغ الأحكام، ومنهج التجريب والمشاهدة فـي علـوم الكون والحياة، وكانت فعلاً مسألة المناهج من الدين، لأنها بمثابة الطـريق الـصحيح الموصـل إلى العلم الصحيح، يقول عبد الله بن المبارك: (الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء).(١)

إذن مادام في الإسلام هذه الدقة في السير في شؤون الحياة، فهذا يدعونا إلـى التعـرف علـى مدى اهتمام القرآن الكريم ـ دستور الإسلام ـ بالعلم والتعلم، والذي عن طريقه يتعلم المفكر المسلم المنهجية الصحيحة.

دعوة القرآن الكريم إلي العلم والتعلم:

دعا القرآن إلي العلم دعوة صريحة وواضحة وذلك منذ أول آية نزلت منه.

قـال تعالـى: " اقْـرأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الأَكْـرَمُ* الَّـذِي عَلَّـمَ بِـالقلم* عَلَّـمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ " (العلق ١: ٥)

فالإسلام يدعو المسلمين إلى البحث العلمي التجريبي في الكون المادي الـذى سخره الله تعالى للإنسان، وغاية ذلك البحث التجريبي أن يصل الإنسان إلى عظمة الخالق تعالى وإبداعه، وأنه يستحيل على من خلق وأبدع أن يكون له شريك أو معه ولي أو معين، وحينئذ يزداد العالم خشية لله تعالى وخضوعاً له.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٦٨. ط: الشعب، وانظر: منهجية البحث العلمي وضوابطه. د: حلمي عبد المنعم صابر١٦، ١٧(العدد (١٨٣) من سلسلة دعوة الحق).من إصدارات: رابطة العالم الإسلامي.

ويعـزز ذلـك أن القـرآن الكريم دعا للعلم واستعمال العقل والنظر، وتكـررت فيه عبارات "أفلا تعقلون" "أفلا تبصرون" بل وارتبط فيه لفظ العلم بالتقوى والخشية "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْـوَانُهَا وَمِـنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (فاطر ٢٧: ٢٨) أي أن التفكر والبحث العلمي في بديع الخلق من إنزال المطر واختلاف الشجر والبشر والحجر من صفات العالم الحقيقى المؤمن الذى يدعو لـه الإسلام، يقول تعالى "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَـرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ" (الزمر ٩).

وغير ذلك كثير من الآيات وردت في الحث على العلم والرفع من شأن العلمـاء، وفي القرآن ما يقرب من مائة وسبع وخمسين آية في العلوم بألوانها المختلفة.

وهاهو الإمام" محمد عبده" يصرح بأن أكثر من ثلث الآيات بل نصفها تقريبا آيات تحث على النظر في الكون والبحث عن الأسباب والمسببات.(١)

فـالعلم الذي يأمر به القرآن لم يكن مقصوراً على جزئية معينة في هذا الكون؛ بل هو جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض ومـا خلق من شئ، ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة وغير ذي حياة.(٢)

وبالتالـي كانـت قـراءة الكتاب الكوني شاملة مقترنة بالنظر والفكر والعـبادة، قائمة على ما وضعه الله سبحانه وتعالى في كتابه من أسس المنهج

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية،الشيخ/محمد عبده، ص٤٦،٤٧، دار المنار ط سنة ١٣٧٣هـ.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، ص ٥٧، نهضة مصر للطبع والنشر- د. ت

العلمي للإنسان لكي يتعلم ويسير عليه في نظرته للكون، وكان علينا أيضا أن نبحث عن أسس هذا المنهج وكيفية الاستفادة منه في أبحاثنا العلمية.[١]

قال تعالى " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ".(آل عمران ١٩١)

ولا يكـون ذلك إلا بالمنهج الذي يكشف عن سر الله في خلقه، ومعرفة حقائـق الوجود المكنونة والتي تخرج إلي حيز الوجود في ثوب علمي ببحوث العلمـاء وجهـودهم الذين كرمهم الله ورفع من شأنهم فقال تعالى " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ" (المجادلة ١١) كما وصف الله عز وجـل أولى العلم بأنهم من الذين يشهدون له بالوحدانية فقال تعالى " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ".(آل عمران ١٨)

إذن سـبيل العلم في القرآن من سبل الحق تبارك وتعالى، ووسيلة من وسـائل تحقيق الإنسان لرسالته في الحياة عبدًا لله ومستخلفًا في الأرض، أمر بالقيام على عمارة الحياة قدر الاستطاعة في غير ضرر ولا ضرار.[٢]

والقرآن الكريم له منهجه الواضح الذي إذا اتبعته العقول أدركت حقائق الأمـور ومراميها، ومن هنا كانت دعوة القرآن إلي العلم جلية بارزة منذ بدء الوحي، وقد أكدت هذه الدعوة بالقسم بالقلم، ولا يقسم الله إلا بما له شأن عظيم، ويأمـر القـرآن المسلم أن يعمل عقله لتتسع له الآفاق التي يدرك من خلالها حقائـق جزئية وكلية مشاهدة وغير مشاهدة على أسس عقلية دونما ظنون ولا أوهـام، كمـا يطالب العقل بإقامة الدليل في كل ما يصل إليه، ويوجه القرآن

---

(١) أسس المنهج القرآني في بحث العلوم التطبيقية. ص١٣منتصر محمود مجاهد أحمد (منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

(٢) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي، د/ زغلول راغب النجار- ص ٧٣، مركز البحوث والمعلومات، دولة قطر سنة ١٩٨٨م

الإنسان أن يسير في الأرض ويتفكر ويسمع ويبصر ويتأمل فيما يراه ويسمعه فيقول ــ سبحانه ــ "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ". (الحج٤٦)

إذن فقد رسم القرآن الكريم الطريق في دعوته إلي العلم ومنهجه لإدراك أسرار الكون، ودعا إلي النظر والبحث والأخذ بالأسباب والمنهج العلمي الذي هو أساس التطور والتقدم.(١) وهذا يجعلنا ندرك حقيقة أن البحث العلمي فريضة على المسلم لاعتبارات عديدة لا مجال لإطالة النظر فيها هنا، لكنا نحاول التأمل في الحكمة من فرضيته فيما يتعلق بما نحن بصدده.

فريضة البحث العلمي:

إن فريضة البحث أمر قرآني لا ينفر منه إلا ذو عقل متجمد وفكر خاطئ لأن فريضته من متطلبات الخلافة في الأرض والتي تميز فيها الإنسان بالعقل، الذي تخاطبه الآيات القرآنية وتدلل على قيمته.

وهذا الخطاب للعقل لا ينحصر في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح بل يعمم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصية أو وظيفة، إذ هي جميع ما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء.(٢) قال تعالى " وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ " [المؤمنون ٨٠] وقوله " وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ " [العنكبوت ٤٣]

---

(١) أسس المنهج القرآني في بحث العلوم التطبيقية ص٨. (بتصرف يسير) منتصر محمود مجاهد أحمد. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.

(٢) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، ص٣ ،٤.

فهـذا الخطاب إلي العقل الذي يفكر ويستخلص زبدة الرأي، ولقد عبر عنه القرآن بمعان متعددة تشترك في المعنى أحياناً وينفرد بعضها بمعناه حسب السياق في أحيان أخرى، فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية.(١)

قال تعالى " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ " [آل عمران ١٩١] وقوله " قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ". [يونس ١٠١]

فهـذه الآيات وغيرها تقرر فرضية البحث والتفكير بصفة عامة، كما تبين أن العقل الذي يخاطبه القرآن هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر وهو العقل الذي يقابل الجمود والعنت والضلال.(٢)

وهـذا العقل الذي يبغيه القرآن هو الباحث في الكون عن السنن لكي يكتشفها، التي تأخذ به إلي التدبر واستشعار عظمة الخالق ثم تقواه، بشرط ألا يكون متبعاً الطريق المعوج وإنما يكون فهم الكون والحياة طريقا للوصول إلي الله سبحانه وتعالى.(٣)

وهـذا مـا يجعل الباحث يقر ويذعن لربه بقوله: "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ". (آل عمران١٩١)

فمن الحق ألا نظلم هذا الكتاب" القرآن" ونبعده عن جادة الصواب، لأن القرآن أمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم بصدر عن العقول... ذلك أن المسلم أولى من غيره بطرق التقدم وطرق العلم الحديث وبكل علم من

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، ص ٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤.

(٣) المدخل الإسلامي للطب، ص ١٧د/ إبراهيم الصياد، مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٧م.

علـــوم المعـــرفة لأنـــه مأمـــور بالـــبحث عـــن أسرار الكون ومطالب بالفهم والتفكر.[١]

ومن ثم فالمسلم أقدر من غيره على البحث والاستخدام المثمر الصحيح الذي يوصل إلي نتائج علمية مستقيمة.[٢]

لأن معه المنهج الرباني والتوفيق الإلهي واستقامته مع ربه، فكلما حدث خلل أو تعثرت الأمور أمامه فزع إلي ربه، فلن يضل أبدا ما دام يسير في هذا الطريق الإلهي.

فماذا يكون مصير الأمة الإسلامية إذا لم تأخذ بفرضية البحث ؟

ليس لهم مصير إلا التخلف والاضمحلال بين الأمم لأنهم عطلوا وسائل المعرفة العلمية والبحث ونقضوا استخلافهم في الأرض والتي من أهم مقوماتها القـــيام على عمارتها بالتفكر والنظر والتدبر والسير في الأرض وبكل ما أتيح للمسلم من أدوات ووسائل تنفيذاً لأوامر الله ــ عز وجل ــ [٣]

إذن لابد من معرفة المناهج وضوابطها الشرعية حتى نبني الفكر السليم والقـــويم، ولا بـــد مـــن دراسة المنهجية العلمية في الفكر الإسلامي لأنها هي الكاشفة عن الطريق التي يسلكها العقل في بحثه عن الحقيقة.[٤]

وهـــذا يدعونا إلى التعرف على نشأة المنهج التجريبي، وهل في فكرنا الإسلامي وفي دستورنا القرآني شيء من هذا القبيل؟

---

(١) التفكير فريضة إسلامية. للعقاد، ص ٦٠، ١٤٤

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، ص ٤٤سحمد بن صامل السلمى، دار الوفاء للطباعة والنشر- المنصورة سنة ١٩٨٨م

(٣) أسس المنهج القرآني في بحث العلوم التطبيقية. ص١٦ منتصر محمود مجاهد أحمد. مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

(٤) منهجية البحث العلمي وضوابطه. د/ جلمي عبد المنعم صابر ص١٧، ١٨ (العدد١٨٣ من سلسلة: دعوة الحق. رابطة العالم الإسلامي).

المنهج التجريبي عند العلماء المسلمين:

إن المنهج التجريبي، أو منهج الاستقراء والتجريب، هو المنهج الذي ينتقل فيه الباحث من الجزء إلى الكل، أو من الخاص إلى العام، فهو يسير متدرجا في التعميم حتى يصل إلى حكم عام أو قضايا كلية ، وهو يقوم في كل خطواته على الملاحظة والتجربة واستقراء الجزئيات الواقعية، والمقايسة بينهما حتى يصل إلى القوانين العامة.

ويعد المنهج التجريبي العملي لدى المسلمين بمثابة الرفض والطرح للمنهج الصوري، وكان بحق مفتاح النهضة العلمية في مجال العلوم الطبيعية- على وجه الخصوص- لأن موضوعاته هي الوقائع الخارجية المشهودة، فهي لا تقتنص من العقل-كما في المنهج الصوري لدى اليونان-ولكنها تفرض نفسها من الخارج على العقل، ثم يقوم العقل بتفسيرها وتحليلها واستقراء جزئياتها واستنباط القوانين العامة منها.(١)

وأكثر الكتاب والباحثين الذين تناولوا المنهج التجربي عند علماء المسلمين يؤكدون أن للقرآن الكريم أثره الواضح والذي لا ينكره منكر في البحث العلمي ــ بوجه عام ــ وفي المنهج التجريبي ــ بوجه خاص ــ وكذلك للقياس الأصولي أثر بارز أيضًا في نفس المجال.

يقول الدكتور بركات مراد:

لقد كان للقرآن أثره في علماء المسلمين والدليل على ذلك ما استدل به" البيروني ٣٥١:٤٤٠ هـ" من آيات قرآنية أنقذت رجلا من القتل بسبب مشاهدة قد رأها بعينيه ولم يصدقه فيها السلطان لغرابتها، فقد ورد رسول من أقصى بلاد الترك على السلطان خوارزمشاه وحدثه بما شاهد وراء البحر نحو القطب الشمالي ويستمر النهار أمدا طويلا ولم يصدقه خوارزمشاه ورماه

---

(١) منهجية البحث العلمي وضوابطه. د/ حلمي عبد المنعم صابر ص٦٣.

بالإلحاد والقرمطة ولم ينقذه سوى البيروني عند ذكر قوله تعالى: "وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً".[1] (الكهف ٩٠)

ويقول الدكتور عبد اللطيف العبد:

إن المنطق الإسلامي التجريبي هو الروح الحقيقي المميز للحضارة الإسلامية، الذي انبثق جوهره من القرآن الكريم وعلم إسلامي أصيل هو علم أصول الفقه، اللذان كان لهما الفضل في الكشف عن أصول المنهج التجريبي لدى علماء المسلمين.[2]

أما أثر القياس الأصولي فيبرز في أن الأصوليين في مباحثهم عن القياس الأصولي والعلة وتنقيح المناط والسبر والتقسيم كان له بالغ اثر في مناهج العلوم حيث تأسيس على المشاهدة والتجربة.[3] لأن قدرة المجتهد على وضع القضية القياسية في موضعها من الحقائق يشبه إعداد وتصميم التجربة، ولذلك أوجب أن يكون القياسيون في الدرجة العليا من العلم ليتصاعدوا بها، لأنه من أتم عقله ولم يكن عالما لم يكن له أن يقول بقياس، ومن كان عالما حافظاً لا بطريقة المعرفة فليس له أن يقول بقياس لأنه قد يذهب عليه عقل المعاني وهذا يعني أن تكون الدربة العلمية مصاحبة للمعرفة النظرية، وما يجب على القائس بعدم القول دون التثبيت هو نفسه عدم الوثوب إلي النتائج أو الميل إلي رأي الغير أو هوى المرء أو ظنونه، بل يتعين عليه إجراء بحثه وتكراره بنفسه.[4]

---

(١) البيروني فيلسوفا، ص ٢٧، ٢٨- د/ بركات محمد مراد- دار الصدر لخدمات الطباعة، ط ١ سنة ١٩٨٨م.

(٢) التكفير المنطقي بين المنهج القديم والجديد، ص ٤٣- د/ عبداللطيف محمد العبد- ط: الأنجلو المصرية سنة١٩٧٠م.

(٣) مناهج البحث في العلوم الإسلامية ص ٧١. د/ مصطفى حلمي، الزهراء ط، سنة ١٩٨٤م.

(٤) القرآن والمنهج العلمي المعاصر. عبد الحليم الجندي. ص٦٣، ٦٤ دار المعارف مصر سنة١٩٨٤م.

وبـــناء علـــى هـــذا أخذ التجريبيون من الأصوليون كثيرا من المباحث الأصولية وطبقوها في بحوثهم وهذا هو جابر بن حيان ١٦١ هـــ ٧٧٨م الذي تأثر في منهجه التجريبي بالأصوليين حيث يقول" إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم، ويحق أن تعرف الباب من أوله إلي أخره بجميع تنقيته وعلله ثم تجرب لـــيكون فـــي التجربة كمال" العلم" فهذا شرط من شروط الشافعي وهو الابتداء بـــالعلم ثـــم تمحيص خصائص الأشياء والاستمرار في التجربة إلي أن تستقر نتائجها، وبالعلم السابق وحده يمكن تحقيق مبدأ تصميم غلي أن تستقر نتائجها، وبـــالعلم السابق وحده يمكن تحقيق مبدأ تصميم التجربة قبل إجرائها وهذا مبدأ عـــند جابـــر"[١] وكذلك كان ابن الهيثم ٣٥٤:٤٣٠ هـــ متأثرا بالأصوليين إذا يقرن لفظ الاعتبار بمعنى التجربة العلمية بما تحتويه من متغيرات يجب الفصل بيـــنها، وهذا ما أخذه عن الأصوليين في اعتبارهم السبر والتقسيم أي الإبطال والحصر مسلكا عقليا لاكتشاف العلة".[٢]

ومن هذا يتضح لنا أن العوامل المؤثرة في إرساء قواعد المنهج العلمي عند العلماء المسلمين هو القرآن الكريم والقياس الأصولي.

يشير الدكتور: حلمي صابر إلى أن منبع المنهج البحثي التجريبي عربي أصـــيل، فـــيقول: وهـــذا ما يشهد به المنصفون من أبناء هذه الحضارة، تقول المستـــشرقة (زيفريد هونكة): (إن أثمن هدية قدمها العرب لأوروبا هي: منهج البحث، الذي لولاه لبقيت أوروبا في همجيتها)[٣] وينبغي على أبناء المسلمين –

---

(١) القرآن والمنهج العلمي المعاصر. عبد الحليم الجندي، ص ١٣٠.

(٢) التفكير المنطقي بين المنهج القديم والجديد. د/ عبداللطيف محمد العبد. ص ١١٥.

(٣) منهجية البحث العلمي وضوابطه.د/ حلمي عبد المنعم صابر ص٦٣. نقلاً عن: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٠١.

مـــن ضـــحايا الغزو الفكري،وأسرى الهزيمة النفسية- أن يعوا ذلك جيدا،وأن يفيئوا إلى ذاتيتهم الإسلامية،ويستعيدوا عزهم المفقود.[1]

خطوات المنهج التجريبي:

أما عن خطوات المنهج التجريبي :فهي كثيرة،ويختلف العلماء فيما بينهم في الأخذ بها، لكن خطواته الأساسية تتمثل في أربع خطوات هي:

١- الملاحظـــة والمـــشاهدة. أي الرصـــد والتتبع لتصور الظاهرة موضوع البحث.

٢- وضـــع الفروض لتفسير الظاهرة. بحيث يتجاوز الباحث مرحلة الوصف إلـــى مـــرحلة التفسير، وبيان الروابط بين الظاهرة وغيرها، ويضع من الفـــروض ما يمكن أن يكون تفسيرًا لهذه الظاهرة ويقوم الباحث بتصفية هـــذه الفروض، واستبعاد ما لا يصلح منها حتى لا يُبقي لديه إلا فرضًا واحدًا يصلح تفسيرًا للظاهرة.

٣- التجـــريب. وهـــي خطوة يقوم فيها الباحث باختبار صحة الفرض الذي ترجح لديه من حيث تلازمه مع الظاهرة في كل الأحوال وجودًا بوجوده وعدمًا بغيابه، وهو ما يعرف بالدوران عند الأصوليين.

وهـــذه الخطوات الثلاث تشكل مرحلة أولى في المنهج التجريبي، وهي ما يطلق عليها "مرحلة التحليل"، ثم تليها مرحلة التركيب، أو "مرحلة التقنين"، وتلك هي الخطوة الرابعة وهي:

٤- تقنين النتائج الجزئية. بحيث تجمع هذه النتائج الجزئية المتناثرة، ويصاغ منها قانون كلي تبنى عليه المعارف.

---

(١) منهجية البحث العلمي وضوابطه. د/ حلمي عبد المنعم صابر ص٦٣.

ويهمنا هنا أن نعرف أن صياغة القوانين الكلية من خلال الجزئيات المستقرأة هو منهج علماء المسلمين والذي استلهموه من روح القرآن الكريم في قوله تعالى "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً"(الفتح:٢٣)

حيث يبين الله سبحانه وتعالى أن السنة الجارية في حالة معينة أو جزئية معينة هي سنة عامة لسواها من نوعها. وهذا ما قرره علماء المنهج العلمي في الغرب تحت صيغة (المسلمات العلمية) ويقصدون بها: الأمور المسلمة لدى الباحث وهي في جملتها أمور مشاهدة ومدركة لا مجال للريب فيها، وهي تنقسم إلى نوعين: مسلمات عامة، ومسلمات خاصة، فالمسلمات العلمية العامة تتعلق بالبحث في ذاته، والمسلمات الخاصة تتعلق بالطبيعة البشرية للباحث، وقد أوجز علماء المسلمين هذه المسلمات الشخصية فيما يسمى (بضرورة التثبت) وعدم التسرع في إصدار النتائج قبل تمحيصها، وقد استلهموا ذلك من توجيهات القرآن الكريم حيث يقول تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ " (الحجرات:٦)، ويقول تعالى:"وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً"(الإسراء:٣٦).[١]

نماذج من المنهج التجريبي في القرآن الكريم:

وحتى يتسنى لنا الوعي التام بالمنهج التجريبي ويسلم ضعاف النفوس ممن يخدعون بما يدعى بالحضارة الغربية وينسبون كل صغيرة وكبيرة إليها، أقول حتى يتم ذلك لابد من استحضار بعض النماذج القرآنية التي تبرز هذا المنهج بجلاء ووضوح، ونستقرئ بعضًا من أقوال المفسرين فيها

---

(١) منهجية البحث العلمي وضوابطه. د/ حلمي عبد المنعم صابر ص٦٦ــ٦٨ (بتصرف).

النموذج الأول:

"فَلَمَّـا فَـصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَـيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِـيلًا مِـنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ". (البقرة ٢٤٩)

وقـبل أن ننظر في أقوال المفسرين نود التذكير بأننا لسنا بصدد تفسير هـذه الـنماذج تفسيرًا كاملاً، وإنما نذكر هنا ـ من تفسير الآيات ـ فقط ما يبرز صلة هذه النماذج أو تلك الآيات بالمنهج التجريبي.

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ

يَقُول تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ طَالُوت مَلِك بَنِي إِسْرَائِيل حِين خَرَجَ فِي جُنُوده وَمَـنْ أَطَاعَهُ مِنْ مَلَإ بَنِي إِسْرَائِيل وَكَانَ جَيْشه يَوْمَئِذ فِيمَا ذَكَرَهُ السُّدِّيّ ثَمَانِينَ أَلْفًـا فَالَّلـه أَعْلَم أَنَّهُ قَالَ " إِنَّ اللَّه مُبْتَلِيكُمْ" أَيْ مُخْتَبِركُمْ بِنَهَرٍ قَالَ اِبْن عَبَّاس وَغَيْره: وَهُوَ نَهَر بَيْن الْأُرْدُن وَفِلَسْطِين يَعْنِي نَهَر الشَّرِيعَة الْمَشْهُور" فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي " أَيْ فَلَا يَصْحَبنِي الْيَوْم فِي هَذَا الْوَجْه " وَمَنْ لَمْ يَطْعَمهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اِغْتَرَفَ غُرْفَة بِيَدِهِ " أَيْ فَلَا بَأْس عَلَيْهِ. قَالَ اللَّه تَعَالَى " فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِـيلًا مِـنْهُمْ " قَالَ اِبْن جُرَيْج قَالَ اِبْن عَبَّاس: مَنْ اِغْتَرَفَ مِنْهُ بِيَدِهِ رُوِيَ وَمَنْ شَـرِبَ مِنْهُ لَمْ يُرْوَ وَكَذَا رَوَاهُ السُّدِّيّ عَنْ أَبِي مَالِك عَنْ اِبْن عَبَّاس. وَكَذَا قَالَ قَتَادَة وَاِبْن شَوْذَب قَالَ السُّدِّيّ: كَانَ الْجَيْش ثَمَانِينَ أَلْفًا فَشَرِبَ مِنْهُ سِتَّة وَسَبْعُونَ أَلْفًا وَتَبَقَّى مَعَهُ أَرْبَعَة آلَاف كَذَا قَالَ.... " فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَة لَنَا الْيَوْم بِجَالُوت وَجُنُوده " أَيْ اِسْتَقَلُّوا أَنْفُسهمْ عَنْ لِقَاء عَدُوّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ فَشَجَّعَهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ الْعَالِمُونَ بِأَنَّ وَعْد اللَّه حَقّ فَإِنَّ النَّصْر مِنْ عِنْد اللَّه لَيْسَ عَنْ

كَثْرَة عَدَد وَلَا عُدَّة وَلِهَذَا قَالُوا " كَمْ مِنْ فِئَة قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَة كَثِيرَة بِإِذْنِ اللَّه وَاَللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ"(١).

ويلاحظ في الآية ــ والله أعلم ــ أن الله قد وضع الجنود أمام تجربة وهو يعلم أن منهم من سيقوم بتنفيذها بدقة ومنهم من سيخفق في ذلك، فليتأمل كل مسلم هذا جيدًا، وليستفد وينتع بهذه التجربة.

النموذج الثاني:

"أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة ٢٥٨)

قال ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ

وَمَعْنَى قَوْله " أَلَمْ تَرَ " أَيْ بِقَلْبِك يَا مُحَمَّد "إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيم فِي رَبّه" أَيْ وُجُود رَبّه، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُون إِلَه غَيْره، كَمَا قَالَ بَعْده فِرْعَوْن لِمَلَئِهِ: "مَا عَلِمْت لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي"، وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَان وَالْكُفْر الْغَلِيظ وَالْمُعَانَدَة الشَّدِيدَة إِلَّا تَجَبُّره وَطُول مُدَّته فِي الْمُلْك، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقَال إِنَّهُ مَكَثَ أَرْبَعمِائَة سَنَة فِي مُلْكه، وَلِهَذَا قَالَ "أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ" وَكَانَ طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيم دَلِيلًا عَلَى وُجُود الرَّبّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ، فَقَالَ إِبْرَاهِيم "رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت"، أَيْ إِنَّمَا الدَّلِيل عَلَى وُجُوده حُدُوث هَذِهِ الْأَشْيَاء الْمُشَاهَدَة بَعْد عَدَمهَا، وَعَدَمهَا بَعْد وُجُودهَا، وَهَذَا دَلِيل عَلَى وُجُود الْفَاعِل الْمُخْتَار ضَرُورَة؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَحْدُث بِنَفْسِهَا فَلَا بُدّ لَهَا مِنْ مُوجِد أَوْجَدَهَا، وَهُوَ الرَّبّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى عِبَادَته وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، فَعِنْد ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجّ وَهُوَ النُّمْرُود "أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت"، قَالَ قَتَادَة وَمُحَمَّد بْن إِسْحَاق وَالسُّدِّيّ وَغَيْر وَاحِد: وَذَلِكَ أَنِّي أُوتِيَ بِالرَّجُلَيْنِ قَدْ اِسْتَحَقَّا

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٠٣/١ لابن كثير(إسماعيل بن كثير بن عمر الدمشقي أبو الفدا) ت٧٧٤هـ. ط: دار إحياء الفكر ــ بيروت ١٤٠١هـ

الْقَتْل فَآمُر بِقَتْلِ أَحَدهمَا فَيُقْتَل وَآمُر بِالْعَفْوِ عَنْ الْآخَر فَلَا يُقْتَل، فَذَلِكَ مَعْنَى الْإِحْيَاء وَالْإِمَاتَة، وَالظَّاهِر وَاَللَّه أَعْلَم أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيم وَلَا فِي مَعْنَاهُ لِأَنَّهُ مَانِع لِوُجُودِ الصَّانِع وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَام عِنَادًا وَمُكَابَرَة وَيُوهِم أَنَّهُ الْفَاعِل لِذَلِكَ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت كَمَا اِقْتَدَى بِهِ فِرْعَوْن فِي قَوْله "مَا عَلِمْت لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْرِي" وَلِهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيم لَمَّا اِدَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَة "فَإِنَّ اللَّه يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِق فَأْت بِهَا مِنْ الْمَغْرِب" أَيْ إِذَا كُنْت كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّك تُحْيِي وَتُمِيت فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّف فِي الْوُجُود فِي خَلْق ذَوَاته وَتَسْخِير كَوَاكِبه وَحَرَكَاته، فَهَذِهِ الشَّمْس تَبْدُو كُلّ يَوْم مِنْ الْمَشْرِق فَإِنْ كُنْت إِلَهًا كَمَا اِدَّعَيْت تُحْيِي وَتُمِيت فَأْت بِهَا مِنْ الْمَغْرِب؟ فَلَمَّا عَلِمَ عَجْزه وَانْقِطَاعه وَأَنَّهُ لَا يَقْدِر عَلَى الْمُكَابَرَة فِي هَذَا الْمَقَام بُهِتَ أَيْ أُخْرِسَ فَلَا يَتَكَلَّم، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّة. قَالَ اللَّه تَعَالَى "وَاَللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ" أَيْ لَا يُلْهِمهُمْ حُجَّة وَلَا بُرْهَانًا، بَلْ حُجَّتهمْ دَاحِضَة عِنْد رَبّهمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَهَذَا التَّنْزِيل عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَحْسَن مِمَّا ذَكَرَهُ كَثِير مِنْ الْمَنْطِقِيِّينَ؛ أَنَّ عُدُول إِبْرَاهِيم عَنْ الْمَقَام الْأَوَّل إِلَى الْمَقَام الثَّانِي اِنْتِقَال مِنْ دَلِيل إِلَى أَوْضَح مِنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ يُطْلِق عِبَارَة تُرْدِيه، وَلَيْسَ كَمَا قَالُوهُ بَلْ الْمَقَام الْأَوَّل يَكُون كَالْمُقَدِّمَةِ لِلثَّانِي وَيُبَيِّن بُطْلَان مَا اِدَّعَاهُ نُمْرُود فِي الْأَوَّل وَالثَّانِي، وَلِلَّهِ الْحَمْد وَالْمِنَّة.

وَقَدْ ذَكَرَ السُّدِّيّ أَنَّ هَذِهِ الْمُنَاظَرَة كَانَتْ بَيْن إِبْرَاهِيم وَنُمْرُود بَعْد خُرُوج إِبْرَاهِيم مِنْ النَّار وَلَمْ يَكُنْ اِجْتَمَعَ بِالْمَلِكِ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْم فَجَرَتْ بَيْنهمَا هَذِهِ الْمُنَاظَرَة(١).

فهذه المناظرة قد وضعت النمروذ أمام الأمر الواقع، فشعر أنه قد افتضح أمره وتبين كذبه، وتأتي النتيجة النهائية المؤكدة "فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣١٣/١ لابن كثير(إسماعيل بن كثير بن عمر الدمشقي أبو الفدا) ت٧٧٤هـ. ط: دار إحياء الفكر ـ بيروت ١٤٠١هـ.

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"، وهنا يعلمنا القرآن كيف نلتفت إلى المناظرة العلمية" أَلَمْ تَرَ "، كما يعلمنا كيف تكون المناظرة، وكيف يستخدمها المسلم والداعية إلى الله، وكيف تؤتي ثمارها وتكون فاعلة، كما أن القرآن الكريم يعلمنا أهمية التنظير، والتعلم من خلاله وكيفية كشف الخصم وفضح أمره وزهق الباطل، وقد سبق القرآن الكريم من يدعون بأنهم أهل المناظرات في كيفية الحوار والنقاش وإيجاد سؤال الخصم، والمشاهدة المؤدية إلى كشف حقيقته، وتجربة البحث، والمشاهدة المستمرة، والخروج بالاستنتاج العام، والتعليق عليها والاستفادة منها وتطبيق نتائجها في حياة الناس " فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ".

النموذج الثالث:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(البقرة ٢٥٩)

قال الشيخ حسنين محمد مخلوف رحمه الله: أنى يحيي: كيف، أو متى يحيي ؟ لم يتسنه: لم يتغير مع مرور السنين عليه. ننشزها: نرفعها من الأرض لنؤلفها.(١)

قال ابن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ

"وَهِيَ خَاوِيَةٌ" أَيْ لَيْسَ فِيهَا أَحَد مِنْ قَوْلهمْ خَوَتْ الدَّار تَخْوِي خُوِيًّا. وَقَوْله" عَلَى عُرُوشِهَا " أَيْ سَاقِطَة سُقُوفهَا وَجُدْرَانهَا عَلَى عَرَصَاتهَا، فَوَقَفَ مُتَفَكِّرًا فِيمَا آلَ أَمْرهَا إِلَيْهِ بَعْد الْعِمَارَة الْعَظِيمَة وَقَالَ "أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّه بَعْد

---

(١) كلمات القرآن تفسير وبيان، حسين محمد مخلوف، الإسكندرية (مصر) ط: دار الصفا والمروة للنشر والتوزيع (٢٠٠٤م) (ص: ٣٢).

مَوْتِهَا" وَذَلِكَ لِمَا رَأَى مِنْ دُثُورِهَا وَشِدَّةِ خَرَابِهَا وَبُعْدِهَا عَنْ الْعَوْدَةِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّه تَعَالَى " فَأَمَاتَهُ اللَّه مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ " قَالَ وَعُمِّرَتْ الْبَلْدَةُ بَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ، وَتَكَامَلَ سَاكِنُوهَا وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بَعْدَ مَوْتِهِ كَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ أَحْيَا اللَّه فِيهِ عَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلَى صُنْعِ اللَّه فِيهِ كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ سَوِيًّا قَالَ اللَّه لَهُ ـ أَيْ بِوَاسِطَةِ الْمَلَكِ ـ "كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" قَالَ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ أَوَّلَ النَّهَارِ ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّه فِي آخِرِ النَّهَارِ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَاقِيَةً ظَنَّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَقَالَ "أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ" وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِيمَا ذَكَرَ عِنَبٌ وَتِينٌ وَعَصِيرٌ فَوَجَدَهُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ لَا الْعَصِيرُ اسْتَحَالَ وَلَا التِّينُ حَمُضَ وَلَا أَنْتَنَ وَلَا الْعِنَبُ نَقَصَ "وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ" أَيْ كَيْفَ يُحْيِيهِ اللَّه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَأَنْتَ تَنْظُرُ "وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ" أَيْ دَلِيلًا عَلَى الْمَعَادِ "وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا" أَيْ نَرْفَعُهَا فَيُرَكِّبُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ... وَقُرِئَ "نُنْشِرُهَا" أَيْ نُحْيِيهَا قَالَهُ مُجَاهِدٌ "ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا" وَقَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ تَفَرَّقَتْ عِظَامُ حِمَارِهِ حَوْلَهُ يَمِينًا وَيَسَارًا فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَلُوحُ مِنْ بَيَاضِهَا، فَبَعَثَ اللَّه رِيحًا فَجَمَعَتْهَا مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ ثُمَّ رُكِّبَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ حَتَّى صَارَ حِمَارًا قَائِمًا مِنْ عِظَامٍ لَا لَحْمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّه لَحْمًا وَعَصَبًا وَعُرُوقًا وَجِلْدًا وَبَعَثَ اللَّه مَلَكًا فَنَفَخَ فِي مَنْخِرَيْ الْحِمَارِ فَنَهَقَ كُلُّه بِإِذْنِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَذَلِكَ كُلُّه بِمَرْأَى مِنْ الْعُزَيْرِ فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ هَذَا كُلُّه "قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" أَيْ أَنَا عَالِمٌ بِهَذَا وَقَدْ رَأَيْته عِيَانًا فَأَنَا أَعْلَمُ أَهْلِ زَمَانِي بِذَلِكَ وَقَرَأَ آخَرُونَ قَالَ اِعْلَمْ عَلَى أَنَّهُ أُمِرَ لَهُ بِالْعِلْمِ.(١)

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣١٥/١، وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع (١٤٢٦هـ) (ص: ١١٤).

وقال أبو السعود:

كأنـــه بعـــثه من النوم للإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال.

قـــال استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال له بعد بعثه، فقيل قال كم لبثت ليظهر له عجزة عن الإحاطة بشؤنه تعالى، وأن إحيائه ليس بعد مدة يسيرة ربما يتوهم أنه هين في الجملة بل بعد مدة طويلة، وينحسم به مادة استبعاده بالمرة ويطلع في تضاعيفه على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى؛ وهـــو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد بالطبع على ما كان عليه دهرا طويلا من غير تغير ما، وكم نصب على الظرفية مميزها محذوف أي كم وقتا لبثت؟ والقائـــل هـــو الله تعالـــى، أو ملك مأمور بذلك من قبله تعالى، قيل نودي من الـــسماء: يا عزير كم لبثت بعد الموت قال لبثت يوما أو بعض يوم، قاله بناء على التقريب والتخمين، أو استقصارا لمدة لبثه،... قال استئناف كما سلف بل لبثت مائة عام، عطف على مقدر أي ما لبثت ذلك القدر بل هذا المقدار، فانظر لتعاين أمرا آخر من دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، أي لم يتغير فـــي هذه المدة المتطاولة مع تداعيه إلى الفساد، روى انه وجد تينه وعنبه كما جنـــي وعـــصيره كما عصر، والجملة المنفية حال بغير واو، كقوله تعالى "لم يمسسهم سوء" إما من الطعام والشراب،... وقد جوز أن يكون معنى لم يتسنه لم يمر عليه السنون التي مرت لا حقيقة بل تشبيها، أي هو على حاله كأنه لم يلبث مائة عام، وقرئ لم يسّنه بإدغام التاء في السين، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه وتفرقت وتقطعت أوصاله وتمزقت؛ ليتبين لك ماذكر من اللبث المديـــد وتطمئن به نفسك، وقوله ــ عز و جل ــ "ولنجعلك آية للناس" عطف علـــى مقدر متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق، أي فعلـــنا ما فعلنا من إحيائك بعد ما ذكر لتعاين ما استبعدته من الإحياء بعد دهر طويل "ولنجعلك آية للناس" الموجودين في هذا القرن بأن يشاهدوك وأنت

مـــن أهـــل القـــرون الخالية، ويأخذوا منك ما طوي عنهم منذ أحقاب من علم الـــتوراة... وتكريـــر الأمر في قوله تعالى: "وانظر إلى العظام" مع أن المراد عظـــام الحمار أيضا؛ لما أن المأمور به أولا هو النظر إليها من حيث دلالتها علـــى ما ذكر من اللبث المديد، وثانيا هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها، أي وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعد ما شـــاهدت نفسه في نفسك "كيف ننشزها" بالزاي المعجمة أي نرفع بعضها إلى بعـــض ويردها إلى أما كنها من الجسد فتركبها تركيبا لائقا بها، وقال الكسائي نليها ونعظمها، ولعل من فسره بنحييها أراد بالإحياء هذا المعنى، وكذا من قرأ ننـــشرها بالراء من أنشر الله تعالى الموتى، أي أحياها لا معناه الحقيقي لقوله تعالى "ثم نكسوها لحما" أي نسترها به كما يستر الجسد باللباس، وأما من قرأ ننـــشرها بفـــتح الـــنون وضم الشين فلعله أراد به ضد الطي كما قال الفراء، فالمعنـــى كـــيف نبسطها، والجملة إما حال من العظام أي وانظر إليها مركبة مكسوة لحما، أو بدل اشتمال أي وانظر إلى العظام كيفية إنشازها وبسط اللحم علـــيها، ولعل عدم التعرض لكيفية نفخ الروح لما أنها مما لا تقتضى الحكمة بيانه، روى أنه نودى أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع كل جـــزء مـــن أجزائها التي ذهب بها الطير والسباع وطارت بها الرياح من كل ســـهل وجبل، فانظم بعضها إلى بعض والتصق كل عضو بما يليق به، الضلع بالـــضلع والذراع بمحلها والرأس بموضعها ثم الأعصاب والعروق ثم انبسط عليه اللحم.[1]

الضبط العلمي التجريبي في الآية.

يقول الدكتور نظمي أبو العطا: وقد حوى القرآن الكريم في هذه الآية على أسس الضبط العلمي التجريبي

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبو السعود)١/٢٥٤،٢٥٣. محمد بن محمد العمادي أبو السعود ت ٩٥١هـ. ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

فهذه الآية من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فيها مواصفات التجـربة العلمية العملية المضبوطة من جميع الجوانب، وفيها ما يأخذ بألباب أهل العلم والتجريب في العصر الحديث، وفيها الضبط العلمي التجريبي، وفيما يلي توضيح ذلك وتفصيله:

أولاً: سؤال البحث: " أنى يحيي هذه الله بعد موتها" ؟ فالسؤال يسأل عن القدرة القادرة على إحياء هذه القرية بعد تدميرها.

ثانيًا: تجربة النتائج: يظن البعض أن إحياء الحمار أمام صاحبه وإحياء الـرجل هو المعجزة الكبرى، ولكن المعجزة كما أراها، والله أعلم، هي حفظ الطعـام والشراب مئة عام، دون تغيير وتبديل في بيئة فيها كل عوامل التحلل مـن بكتيـريا محللـة، وفطريات مترسمة، وحشرات مفسدة، وأكسدة ضوئية، وتفـاعلات كيميائية حيوية، وحرارة مناسبة للتحلل، وأتربة ملوثة، وحيوانات آكلة ، وغيرها من عوامل التغيير والفساد والتحلل والهلاك والاختفاء. أمر الله سـبحانه وتعالى بقدرته كل ما في المكان من عوامل الفساد والتحلل والهلاك السابق أن تخرج عن طبيعتها المفسدة، والمحللة والمهلكة وأن تقف عن عملها مـئة عام، فخرجت البكتيريا والفطريات وغيرها من الكائنات الحية الدقيقة في المكـان عـن طبيعـتها المفـسدة والمحللة ، وتوقفت الإنزيمات والمركبات الكيميائـية وغيـرها عـن عملها، وألغيت الطبيعة المؤكسدة للضوء وامتثلت العـوامل الفيزيائية لأمر القادر الخالق ، وتوقفت الحرارة والرطوبة والرياح والجفـاف عـن التأثير في الطعام والشراب، وامتنعت الحشرات والقوارض، والطـيور وغيرها بأمر الله من الاقتراب من الطعام والشراب، فكانت تجربة النتائج أن ظل الطعام والشراب مئة عام لم يتغير في خواصه النباتية، والحيوية والكيميائـية، والفيزيائية، والغذائية، والجمالية والتركيبية، والسؤال الآن: كيف ظـل الطعـام والشراب مئة عام دون تلف، وتغيير، وهلاك، رغم توافر كل عوامل التلف السابقة ؟!

ثالثًا: تجربة الضبط العلمي للتجربة السابقة:

المتغير الأكبر في التجربة السابقة والمعجزة هو مرور المئة عام، فكيف نتأكد من مرور هذا الوقت على الطعام والشراب ؛ هنا يأتي دور التجربة الضابطة، وهي تحول الحمار إلى عظام نخرة ، لذلك قال الله تعالى للرجل "وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ".

وحتى يستيقن الرجل بمرور المئة عام، وأن هذه العظام هي عظام حماره فعلاً، أراه الله تعالى كيف يجمع العظام المبعثرة، ثم يكسوها باللحم والجلد والشعر، وتدب الحياة في الحمار ويتأكد أنه حماره.

ينظر الرجل حوله فيرى الشمس قد تغير وضعها عن يوم سؤاله (انى يحيي هذه الله بعد موتها) وأن الطعام والشراب لم يتغير، وأن الحمار هو حماره ، وبذلك اكتملت التجربة العملية التجريبية بكامل عناصرها العملية وجاء وقت الاستنتاج العام.

رابعًا: الاستنتاج العام من التجربة:

تأتي النتيجة النهائية المؤكدة أن الله سبحانه وتعالى القادر على إحياء القرية وغيرها بعد موتها: "قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

خامسًا: الدروس المستفادة من التجربة السابقة:

نستنتج مِنْ التجربة العلمية العملية المضبوطة علميًا السابقة ما يلي:

١- يعلمنا القرآن كيف يكون التجريب العملي درسًا من دروس التعليم والتعلم الناجح والمفيد والفعال.

٢- سبق القرآن الكريم علماء العلوم الكونية في تقرير أهمية التجريب، والتعلم من خلاله وأهمية الملاحظة المباشرة، والتعلم الذاتي في إتقان التعليم والتعلم.

٣- سبق القرآن الكريم رجال البحث العلمي في إيجاد سؤال البحث، والمشاهدة المؤدية إليه، وتجربة البحث ، والتجربة الضابطة، والمشاهدة المستمرة، والخروج بالاستنتاج العام، والتعليق عليها والاستفادة منها وتطبيق نتائجها في حياة الناس "ولنجعلك آية للناس "، مؤمنهم وكافرهم، وعالمهم وجاهلهم.

٤- في القرآن الكريم أمثلة كثيرة على التجريب العلمي والرؤية والمشاهدة وأهميتها في عملية التعليم والتعلم الإيماني.

سادسًا: التربية الإيمانية هي المقصد النهائي:

مما سبق يتبين لنا أن النتيجة النهائية لكل التجارب هي التربية الإيمانية " قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: ٢٥٩)، "وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة: ٢٦٠).[١]

النموذج الرابع:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة ٢٦٠)

يقول ابن كثير ــ رحمه الله ــ

ذَكَرُوا لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام أَسْبَابًا مِنْهَا أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُمْرُودَ "رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت" أَحَبَّ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْ عِلْم الْيَقِين بِذَلِكَ إِلَى عَيْن الْيَقِين، وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهَدَة فَقَالَ "رَبِّ أَرِنِي كَيْف تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي".... وَقَوْله " قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَة مِنْ الطَّيْر فَصُرْهُنَّ إِلَيْك" اِخْتَلَفَ

---

(١) آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات، نظمي خليل أبو العطا، القاهرة، دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام (١٩٦٩م) (ص: ٢٠)، وانظر: الشبكة العالمية للإنترنت. موقع: أ.د. نظمي خليل أبو العطا موسى www.nazme.net

الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ مَا هِيَ؟ وَإِنْ كَانَ لَا طَائِل تَحْت تَعْيِينهَا، إِذْ لَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مُهِمّ لَنَصَّ عَلَيْهِ الْقُرْآن... ويذكر بعض الأقوال في ذلك، ثم يقول: وَقَوْله "فَصُرْهُنَّ إِلَيْك" أَيْ وَقَطِّعْهُنَّ، قَالَهُ ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة وَسَعِيد بْن جُبَيْر وَأَبُو مَالِك وَأَبُو الْأَسْوَد الدُّؤَلِيّ وَوَهْب بْن مُنَبِّه وَالْحَسَن وَالسُّدِّيّ وَغَيْرهمْ، وَقَالَ الْعَوْفِيّ عَنْ ابْن عَبَّاس "فَصُرْهُنَّ إِلَيْك" أَوْثِقْهُنَّ، فَلَمَّا أَوْثَقَهُنَّ ذَبَحَهُنَّ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلّ جَبَل مِنْهُنَّ جُزْءًا، فَذَكَرُوا أَنَّهُ عَمَدَ إِلَى أَرْبَعَة مِنْ الطَّيْر فَذَبَحَهُنَّ ثُمَّ قَطَّعَهُنَّ وَنَتَفَ رِيشهنَّ وَمَزَّقَهُنَّ وَخَلَطَ بَعْضهنَّ بِبَعْضٍ، ثُمَّ جَزَّأَهُنَّ أَجْزَاء وَجَعَلَ عَلَى كُلّ جَبَل مِنْهُنَّ جُزْءًا، قِيلَ أَرْبَعَة أَجْبُل، وَقِيلَ سَبْعَة.

قَالَ ابْن عَبَّاس: وَأَخَذَ رُءُوسهنَّ بِيَدِهِ ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَدْعُوهُنَّ فَدَعَاهُنَّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَ يَنْظُر إِلَى الرِّيش يَطِير إِلَى الرِّيش وَالدَّم إِلَى الدَّم وَاللَّحْم إِلَى اللَّحْم، وَالْأَجْزَاء مِنْ كُلّ طَائِر يَتَّصِل بَعْضهَا إِلَى بَعْض حَتَّى قَامَ كُلّ طَائِر عَلَى حِدَته وَأَتَيْنَهُ يَمْشِينَ سَعْيًا؛ لِيَكُونَ أَبْلَغ لَهُ فِي الرُّؤْيَة الَّتِي سَأَلَهَا وَجَعَلَ كُلّ طَائِر يَجِيء لِيَأْخُذ رَأْسه الَّذِي فِي يَد إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام، فَإِذَا قَدَّمَ لَهُ غَيْر رَأْسه يَأْبَاهُ، فَإِذَا قَدَّمَ إِلَيْهِ رَأْسه تَرَكَّبَ مَعَ بَقِيَّة جَسَده بِحَوْلِ اللَّه وَقُوَّته، وَلِهَذَا قَالَ "وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" أَيْ عَزِيز لَا يَغْلِبهُ شَيْء وَلَا يَمْتَنِع مِنْهُ شَيْء، وَمَا شَاءَ كَانَ بِلَا مُمَانِع لِأَنَّهُ الْقَاهِر لِكُلِّ شَيْء حَكِيم فِي أَقْوَاله وَأَفْعَاله وَشَرْعه وَقَدَره، وَقَالَ عَبْد الرَّزَّاق: أَخْبَرَنَا مَعْمَر عَنْ أَيُّوب فِي قَوْله " وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي " قَالَ: قَالَ ابْن عَبَّاس: مَا فِي الْقُرْآن آيَة أَرْجَى عِنْدِي مِنْهَا.(١).

وقال أبو السعود:

"وإذ قال إبراهيم" دليل آخر على ولايته تعالى للمؤمنين وإخراجه لهم من الظلمات إلى النور، وإنما لم يسلك به مسلك الاستشهاد كما قبله بأن يقال

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣١٦/١ لابن كثير(إسماعيل بن كثير بن عمر الدمشقي أبو الفدا) ت٧٧٤هـ. ط: دار إحياء الفكر ـ بيروت ١٤٠١هـ.

أو كالـذي قـال رب الخ لجريان ذكره ـ عليه السلام ـ في أثناء المحاجة، ولأنـه لا دخل لنفسه ـ عليه السلام ـ في أصل الدليل كدأب عزير ـ عليه الـسلام ـ فإن ما جرى عليه من إحيائه بعد مائة عام من جملة الشواهد على قدرته تعالى وهدايته... وتوجيه الأمر بالذكر في أمثال هذه المواقع إلى الوقت دون ما وقع فيه من الواقعات مع أنها المقصودة بالتذكير لما ذكر غير مرة من المـبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطـريق البرهانـي، ولأن الوقت مشتمل عليها مفصلة فإذا استحضر كانت حاضـرة بتفاصيلها بحيث لا يشذ عنها شئ مما ذكر عند الحكاية أو لم يذكر كأنهـا مـشاهدة عيانا "رب" كلمة استعطاف قدمت بين يدي الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة "أرني" من الرؤية البصرية المتعدية إلى واحد وبدخول همزة النقل طلبت مفعولا آخر هو الجملة الاستفهامية المعلقة لها فإنها تعلق كما يعلق النظـر البصري أي اجعلني مبصرا "كيف تحي الموتى" بان تحييها وأنا أنظر إلـيها، وكيف في محل نصب على التشبيه بالظرف عند سيبويه وبالحال عند الأخفش، والعامل فيها تحيى أي في أي حال أو على أي حال تحيى؟... وإنما سأله عليه السلام ليتأيد إيقانه بالعيان ويزداد قلبه اطمئنانا على اطمئنان، وأما ما قيل من أن نمرود لما قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ إن إحـياء الله تعالى برد الأرواح إلى الأجساد، فقال نمرود هل عاينته؟ فلم يقدر علـى أن يقـول نعم، فانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ذلك فيأباه تعلـيل السؤال بالاطمئنان، قال استئناف كما مر غير مرة "أولم تؤمن" عطف علـى مقـدر، أي: ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تـسألنى إراءتـه؟ قاله ـ عز وعلا ـ وهو أعلم بأنه ـ عليه السلام ـ أثبت الناس إيمانا وأقواهم يقينا ليجيب بما أجاب به فيكون ذلك لطفا للسامعين، قال بلى علمت وآمنت بأنك قادر على الإحياء على أي كيفية شئت، ولكن سألت ما سـألت ليطمـئن قلبـي بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان، وأزداد بصيرة

بمشاهدته على كيفية معينة، قال فخذ الفاء لجواب شرط محذوف، أي إن أردت ذلك فخذ أربعة من الطير،... وتخصيص الطير بذلك لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان، ولسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفريق وغير ذلك.

"فصرهن" من صاره يصوره أي أماله، وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره أي أملهن واضممهن، وقرئ "فصُرهن" بضم الصاد وكسرها وتشديد الراء من صرة ويصره إذا جمعه، وقرئ "فصرهن" من التصرية بمعنى الجمع أي اجمعهن إليك لتتأملها وتعرف شياتها مفصلة حتى تعلم بعد الإحياء أن جزءا من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلا.(١)

النموذج الخامس:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ". (الممتحنة ١٠)

قوله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن" الآية... قال ابن عباس أقبل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ معتمرا حتى إذا كان بالحديبية صالحه مشركو مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يردوه عليه، وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب، فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم، وقال مقاتل صيفي بن الراهب في طلبها وكان كافرا، فقال: يا محمد

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبو السعود)١/٢٥٥،٢٥٤. محمد بن محمد العمادي أبو السعود ت ٩٥١هـ. ط: دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

رد على امرأتي فإنك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طية الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله ــ عز وجل ــ "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات" من دار الكفر إلى دار الإسلام "فامتحنوهن" قال ابن عباس: امتحانها أن تُستحلف ما خرجت لبعض زوجها، ولا عشقا لرجل من المسلمين، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ولا لحدث أحدثته ولا التماس دنيا، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، وحبا لله ولرسوله، قال فاستحلفها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ذلك فحلفت فلم يردها، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها، فتزوجها عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وكان يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء بعد الامتحان، ويعطي أزواجهن مهورهن "الله أعلم بإيمانهن" أي هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهن "فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن" ما أحل الله مؤمنة لكافر.(١)

ويقول الإمام الشوكاني: لما ذكر سبحانه حكم فريقي الكافرين في جواز البر والإقساط للفريق الأول دون الفريق الثاني ذكر حكم من يظهر الإيمان فقال "يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات" من بين الكفار وذلك أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لما صالح قريشا يوم الحديبية على أن يرد عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء أبى الله أن يرددن إلى المشركين وأمر بامتحانهن، فقال "فامتحنوهن" أي فاختبروهن، وقد اختلف فيما كان يمتحن به، فقيل كان يستحلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض ولا لالتماس دنيا؛ بل حبا لله ولرسوله ورغبة في دينه، فإذا حلفت كذلك أعطى النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها إليه، وقيل الامتحان: هو أن تشهد أن لا إله

---

(١) معالم التنزيل٤/٣٣٢،٣٣٣(تفسير البغوي) للحسين بن مسعود الفراء البغوي ت٥١٦هـ. تحقيق: خالد العك ومروان سوار. ط: دار المعرفة. بيروت. ط: ثانية ١٩٨٧م

إلا الله، وأن محمـــدا رســـول الله، وقـــيل ما كان الامتحان إلا بأن يتلو عليهن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ الآية وهي: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمـــنات" إلى آخرها، واختلف أهل العلم: هل دخل النساء في عهد الهدنة أم لا؟ على قولين، فعلى القول بالدخول تكون هذه الآية مخصصة لذلك العهد وبه قـــال الأكثر، وعلى القول بعدمه لا نسخ ولا تخصيص "الله أعلم بإيمانهن" هذه الجملـــة معترضـــة لبيان أن حقيقة حالهن لا يعلمها إلا الله ــ سبحانه ــ ولم يتعـــبدكم بـــذلك وإنمـــا تعبدكم بامتحانهن حتى يظهر لكم ما يدل على صدق دعـــواهن فـــي الرغوب في الإسلام "فإن علمتموهن مؤمنات" أي علمتم ذلك بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به "فلا ترجعوهن إلى الكفار" أي إلى أزواجهن الكافرين.(١)

ومن كل التجارب السابقة ــ كما ذكرنا عن الدكتور أبو العطا سابقًا ــ نتبـــين لـــنا النتـــيجة النهائية لكل الآيات التي تحث على التجارب في القرآن الكـــريم؛ وهـــي أن التربية الإيمانية هي المقصد الأساس والنهائي، فمثلاً في الآيـــات السابقة التي أوردناها تذيل الآيات بقوله:" وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" (البقرة ٢٤٩) وقـــوله "قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" [البقرة: ٢٥٩]، وقوله: " وَاعْلَـــمْ أَنَّ اللّـــهَ عَزِيـــزٌ حَكِيمٌ " [البقرة: ٢٦٠]، وقوله: " وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الممتحنة ١٠).(٢)

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (تفسير الشوكاني) مج٢ ص١٠٦. للإمام محمد بن علي الشوكاني ١١٧٣ــ ١٢٥٠هـــ. ط: دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط: ثانية ٢٠٠١م.

(٢) تلك فقط بعض النماذج التي أردنا من خلالها أن نبرز للقارئ الكريم إرساء القرآن الكريم المنهج التجريبي لبني البشر، وإلا فهنالك العديد من الآيات التي تبرز هذا المنهج أيضًا، ولنقرأ في ذلك الآية ١٠٢ من سورة البقرة، والآيات من ١٦٣ــ ١٦٦ الأعراف، والآية ٣،٢ من سورة العنكبوت، ومن الآية ٢٧إلى الآية٣٢ من سورة القمر، وغير ذلك.

خاتمة البحث

بعـــد هذه الجولة الطيبة والمعايشة الوجدانية في رحاب هذا الموضوع المثري نخلص إلى النتائج التالية:

أولاً: تعريف المنهج التجريبي في القرآن الكريم:

القـــرآن الكريم بلغ الغاية في عظمة أسلوبه ودقة نظمه ورقي عباراته الكـــريمة، ولا يلـــيق بمثلنا أن نعرف بمنهج فيه، لكنا نعطي لمحة نقرب هذا المنهج من الأذهان فنقول:

الطريقة البالغة الغاية في الدقة والتنظيم التي يحث القرآن الكريم المسلم على تتبعها في دراسة أمر ما، أو في معالجة الموضوعات التي يقوم بدراستها، بهدف شحذ هممه إلى ما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه.

أو: حث القرآن الكريم على استخدام التجربة في إثبات الفروض، بهدف لفـــت نظر المسلم إلى أمر ما، أو ترسيخ جانب ما في فكره، حتى ينتفع بذلك في دينه ودنياه.

ثانـــيًا: المنهج التجريبي لم يكن حديث النشأة؛ بل يعود في جذوره إلى مفكـــري الإســـلام، منهم العالم والطبيب الفيلسوف ابن سينا، والعالم الكبير أبا بكـــر الرازي، ومن كبار علماء الكيمياء "جابر بن حيان" ومن علماء الطبيعة الأجلاء الحسن بن الهيثم وغيرهم.

ثالثًا: اهتم الفكر الإسلامي بالمنهج اهتمامًا كبيرًا فقد أمر الإسلام بالعلم، وأثنى على العلماء، وذم الجهل والجاهلين، كما طالب بالتثبت والتحقق في طلب العلم، وطالب بإقامة الدليل والبرهان على أية دعوى يدعيها الإنسان، ولم لا ؟ والمنهج وسيلة التثبت والتحقق في طلب العلم، وبدون المنهج السليم من البحث يـــشرد الـــذهن وتـــتحكم فيه الأهواء ويضل الطريق، وقد رسم القرآن الكريم الطـــريق في دعوته إلي العلم ومنهجه لإدراك أسرار الكون، ودعا إلي النظر

والبحث، والأخذ بالأسباب والمنهج العلمي الذي هو أساس التطور والتقدم، كما جعل القرآن الكريم البحث العلمي فريضة على المسلم.

رابعًا: للقرآن الكريم أثره الواضح في البحث العلمي ـ بوجه عام ـ وفي المنهج التجريبي ـ بوجه خاص ـ وكذلك للقياس الأصولي أثر بارز بعد القرآن الكريم، فهما أول وأهم العوامل المؤثرة في إرساء قواعد المنهج العلمي عند العلماء المسلمين.

خامسًا: خطوات المنهج التجريبي كثيرة،ويختلف العلماء فيما بينهم في الأخذ بها، لكن هناك خطوات أساسية تتمثل في أربع خطوات هي:

أولها: الملاحظة والمشاهدة، وثانيها: وضع الفروض لتفسير الظاهرة، وثالثها: التجريب. ورابعها: تقنين النتائج الجزئية.

سادسًا: وردت آيات في القرآن الكريم أرست للمسلمين أسس المنهج التجريبي الذي يفيدهم ويعود عليهم بالنفع العميم في أمور دينهم ودنياهم، ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (البقرة ٢٥٨) وقوله: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقرة ٢٥٩) وقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ

ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (البقرة ٢٦٠) إلى غير ذلك من النماذج التي أشرنا إليها في صلب بحثنا.

قائمة بأهم مراجع البحث:

١- إرشـــاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبو السعود). محمد بن محمد العمادي أبو السعود ت ٩٥١هـــ. ط: دار إحياء التراث العربي ــ بيروت.

٢- أســـاليب الـــبحث العلمـــي ومـــصادر الدراسات الإسلامية. محمد راكان الدغيمي، ١٤١٧هـــ.ط: مكتبة الرسالة، الأردن. طبعة ثانية.

٣- أســـس المـــنهج القرآنـــي في بحث العلوم التطبيقية. منتصر محمود مجاهد أحمد. مطبوعات: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٦م.

٤- الإســـلام والنـــصرانية مـــع العلـــم والمدنـــية، الشيخ/ محمد عبده، ط: دار المنار ط سنة ١٣٧٣ هـــ.

٥- آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات، نظمي خليل أبو العطا، القاهرة، دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام (١٩٦٩م).

٦- البحث العلمي مفهومه، أدواته، قياسه. د/ ذوقان عبيدات – د/ عبد الرحمن عدس – د/ كايد عبد الحق ١٤٢٤هـــ- دار محدولاي للنشر والتوزيع – عمان.

٧- البيرونـــي فيلسوفا، د/ بركات محمد مراد- ط: دار الصدر لخدمات الطباعة، ط ١ سنة ١٩٨٨م.

٨- تفـــسير القـــرآن العظيم. لابن كثير(إسماعيل بن كثير بن عمر الدمشقي أبو الفدا) ت٧٧٤هـــ. ط: دار إحياء الفكر ــ بيروت ١٤٠١هـــ.

٩- التفكيـــر فريـــضة إســـلامية، عـــباس العقـــاد، ط: نهضة مصر للطبع والنشر- د. ت.

١٠- التكفيـــر المنطقـــي بـــين المـــنهج القـــديم والجديد، د/ عبداللطيف محمد العبد- ط: الأنجلو المصرية سنة٠ ١٩٧م.

١١- تيـــسير الكـــريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع (١٤٢٦هـــ).

١٢- صـــحيح الإمـــام الـــبخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.) ط: دار المعرفة/ بيروت.

١٣- صحيح الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت٢٦١ هـــ) بشرح النووي. ط: الشعب.

١٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (تفسير الشوكاني). للإمام محمد بن علي الشوكاني ١١٧٣ــ ١٢٥٠هـ. ط: دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. ط: ثانية ٢٠٠١م

١٥- القرآن والمنهج العلمي المعاصر. عبد الحليم الجندي. ط: دار المعارف مصر سنة ١٩٨٤م.

١٦- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي، د/ زغلول راغب النجار- مطبوعات: مركز البحوث والمعلومات، دولة قطر سنة ١٩٨٨.

١٧- كتابة البحث العلمي صياغة جديدة. د: عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، (١٤١٦هـ)، ط: دار الشروق، جدة. طبعة سادسة.

١٨- كلمات القرآن تفسير وبيان، حسين محمد مخلوف، الإسكندرية (مصر) ط: دار الصفا والمروة للنشر والتوزيع (٢٠٠٤م).

١٩- لسان العرب. جمال الدين محمد ابن منظور (١٤١٠هـ)، ط: دار صادر، بيروت.

٢٠- المدخل الإسلامي للطب، د/ إبراهيم الصياد، مطبوعات: مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٧م.

٢١- المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية، صالح بن حمد العساف (١٤٢٤ هـ)، ط: مكتبة العبيكان. طبعة ثالثة.

٢٢- معالم التنزيل (تفسير البغوي) للحسين بن مسعود الفراء البغوي ت٥١٦هـ. تحقيق: خالد العك ومروان سوار. ط: دار المعرفة. بيروت. ط: ثانية ١٩٨٧م.

٢٣- مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي. ط: وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٧م.

٢٤- مناهج البحث في العلوم الإسلامية. د/ مصطفى حلمي، ط: الزهراء ط، سنة ١٩٨٤م.

٢٥- منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه، محمد بن صامل السلمى، ط: دار الوفاء للطباعة والنشر- المنصورة سنة ١٩٨٨م.

٢٦- منهجية البحث العلمي وضوابطه. د: حلمي عبد المنعم صابر (العدد (١٨٣) من سلسلة دعوة الحق).من إصدارات: رابطة العالم الإسلامي.

٢٧- الشبكة العالمية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي. www.nooran. org، (الهيـئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة - مكة المكرمة) بحوث ومقالات. ورقة بحثية بعنوان: تأسيس منهجية البحث العلمي (من المآثر العلمية للمسلمين). بقلم أ.د .أحمد فؤاد باشا.

٢٨- الشبكة العالمية للإنترنت (موقع إسلام أون لاين) [www.islamonline.net] مقال بعـنوان: الطـب النبوي.. رؤى نقدية الأخطاء المنهجية في أبحاث "الطب النبوي. صهباء بندق.

٢٩- الـشبكة العالمية للإنترنت مقال للدكتور: نظمي خليل أبو العطا موسى، بعنوان: الـضبط العلمـي التجريبـي في القرآن الكريم. (رؤية جديدة) موقع الهيئة العالمية للإعجـاز العلمـي. www.nooran. org، وموقـع الدكتور نظمي خليل أبو العطا [.www.nazme.net